د. محمد محمد أبو موسى
أستاذ ورئيس قسم البلاغة
بكلية اللغة العربية ـ الأزهر الشريف

البلاغة القرآنية
في تفسير الزمخشري
وأثرها في الدراسات البلاغية

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين
تليفون ٣٩١٧٤٧٠

الطبعة الثانية

١٤٠٨ هـ ـ ١٩٨٨ م

جميع الحقوق محفوظة

دار التضـامن

٢٢ شارع سامى ـ ميدان لاظوغلى

تليفون : ٣٥٥٠٥٥٦ ـ القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

الى أطياف النور

هذا جهد متواضع ـ فى ميدان البحث العلمى ـ لم أتريث فى اهدائه الى ثلاثة رجال خالطوا قلبى ، وكان لهم من النفس موقع جليل .

الى روح الامام الجليل أبى بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن الجرجانى ، ذلك الذى شرع لبحث البلاغة منهجا قيما ، يعرف فضله كل باحث يحترم العقل والحق .

والى روح الامام الثبت أبى القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، الذى منح العروبة ولسانها عقله وقلبه ووجدانه ، فأودع تراثها ذخرا من الدراسة اللغوية والأدبية لا يزيده مر الزمن الا قوة وأصالة ومكانة .

والى روح والدى ـ رحمه الله ـ الذى كانت آخر أنفاسه فى هذه الدنيا همهمات ضارعات الى الله أن يوفق ولده فى طلب الخير ، وأن يجعله من حملة هذا العلم الذى يحمله من كل خلف عدوله .

أهديه الى هذه الأطياف التى طالما أبصرتها حائمة فى آفاقى ترسل النور وتبعث الأمل .

محمد محمد أبو موسى

* * *

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

اللهم انى أستعينك على أن أذكرك ما ذكـــرك الذاكرون ، وأن استغفرك ما استغفرك الأوابـون ، وأسالك توبـة محاءة ، ورحمـــة واسعة ، وسترا لا ينكشف .

اللهم انى أسالك أن تجعل كلمتك التى أنت قائلها ارثا قائما فى عقبى الى يـوم أن نلقاك « **ووصى بها ابراهيم بنيه ويعقوب يـا بنى ان الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن الا وأنتم مسلمون** » (١) .

وبعـد ...

فان دراسة الكلام المختار وتحليله واستجلاء معانيه هى الغاية التى وراء كل فروع الدراسات اللغوية بمختلف مذاهبها .

ولم يقف علماؤنا عند كلام يحللونه ويستخرجون منه كما وقفوا عند كلام الله سبحانه ، وقد استخرجوا من أنفسهم أدق الوسائل وأعمقها ، وأحكمها فى هـــذا البـاب ، لأنهم يحرصـون على أمرين . الأول : الا يفوتهم معنى من معـــانى كلام الله فـلا يستخرجونه ، والثانى : الا يستخرجوا من كلام الله غير مراده سبحانه لأن فى فـــوات الأولى نقص يلحق الشريعة ، وفى فوات الثانية دخول ما ليس من شرع الله فيه ، وهذان محظوران كل حظر .

ولهذا أحكموا وسـائلهم اللغوية والبلاغية وراجعوا ودققوا حتى استيقنوا . وقد كان الفقهاء من أكثر علمائنا احتياطا فى هذا الباب ، وكانت لهم ملاحظات واعتبارات غاية فى الدقة ، اقرأ كتاب « الرسالة »

---

(١) البقرة : ١٣٢

للشافعى ، وتأمل كيف كانت تنفذ فطنته فى اختصار شديد الى المسافات الممتدة وراء المعانى الظاهرة ، وكيف كان يلتقط رقائق تذهلك حين يكشف وجهها ، ويضع اليد على العلاقة المتينة بين اللفظ وما استخرجه منه ، وكيف كان يعتبر وسائل متعددة ، منها ما يتصل بالسياق الخاص والسياق العام ، ومنها ما يقوم على ثقافات ومعارف خارج التركيب اللغوى ، وكلام الشافعى كله شاهد على منهج دقيق فى تحليل النصوص وطريقة حوار الكلام ومجاذبته ، تامل تفسيره لكلمة الحكمة فى قوله تعالى : « **واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة** » (٢) .

يقول الشافعى : « سمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول : الحكمة سنة رسول الله » .

ثم رجح الشافعى ذلك بمرجحات منها أن الحكمة حين تاتى فى الكتاب العزيز تكون مقترنة بالكتاب لا تقدم عليه ، وانما يكون التركيب « الكتاب والحكمة » وهذا يعنى أنها تتلو الكتاب دائما وهذا يجعلها أشبه بالسنة ، ثم ان هذا التركيب « الكتاب والحكمة » يأتى فى القرآن مفعولا به للفعل « يُعَلِّم » : « **ويعلمهم الكتاب والحكمة** » (٣) .

والرسول ﷺ انما علم الناس الكتاب والسنة ، ثم ان رسول الله ﷺ يأتى فى ذكر الايمان مقترنا باسم الله سبحانه ، وهذا يرجح أن تكون الحكمة المقترنة بالكتاب هى السنة .

وهكذا ترى هذه تأملات لغوية ، وملاحظة قرائن أسلوبية تقوم على مراجعة مواقع الكلمة فى السياق القرآنى ، واستقصاء ذلك واصطناعه فى استخراج المعنى . وكان المفسرون والفقهاء شيوخ لغة وشعر ورواية ، وكان العلم باللغة والشعر أصل العلم كله فى التفسير والفقه وأصول الدين ، وقد قال الأصمعى : قرأت شعر الشنفرى على محمد بن ادريس ، وقال : قرأت ديوان هذيل على شاب من شباب

---

(٢) الأحزاب : ٣٤ (٣) الجمعة : ٢

قريش يقال له محمد بن ادريس الشافعى ، وكان مالك بن أنس يقول : « لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بلغة العرب الا جعلته نكالا » ويقول مجاهد : « لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله اذا لم يكن عالما بلغات العرب » وهذا كلام يدخل المسالة باب الحل والحرمة . ويُحرّم على من لم يفهم اللغة والنحو أن يفسر القرآن .

ويقول ابن عباس : « الشعر ديوان العرب فاذا خفى عليهم الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغتهم رجعوا الى ديوانهم فالتمسوا معرفة ذلك » .

ويقوم بعض كتابنا بتفسير القرآن تفسيرا بعيدا عن الاعـــراب واللغة ومعتمدا على ايحاء الألفاظ وظلالها وهذا ليس هو الطريق الذى سلكه أهل العلم . وان كان قد خُدع به من لم يؤسسوا علمهم على الوجه الصحيح . كما أن بعض المشتغلين بالعلم يدعون الى الرجوع الى القرآن وحده فى دراسة أصول العربية من نحو وصرف وبلاغة ، وهذا خطأ بيّن لأن القرآن انما يفهم فى ضوء اللسان الذى أنزله الله به ، وهذه قاعدة العلماء ، ولهـذا حفظوا اللســان ، وحفظوا شـــعره ونثره ، وما تراجز به الأعرابُ على أفواه القلب كما كانوا يقولون ، لأن هذا الذى يتناثر من أفواههم هو السبيل الى فهم القرآن .

« روى عن ابن عباس أنه قال : ما كنت أدرى ما قوله : « **ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين** » (٤) . حتى سمعت ابنة ذى يزن الحميرى وهى تقول : أفاتحك ـ يعنى أقاضيك » وجـاءه رجل من هذيل فقال له ابن عباس : « ما فعل فلان ؟ قال : مات وترك أربعة من الولد ، وثلاثة من الوراء فقال ابن عباس : فبشرناه باسحاق ومن وراء اسحاق يعقوب قال : ولد الولد » (٥) .

وحقل التفسير وعلوم القرآن غنى بحقائق ذات صلة قوية بالدراسة

---

(٤) الأعراف : ٨٩

(٥) البرهان جـ ١ ص ٢٩٣ وما بعدها .

الأدبية ، ولكنها غير منتفع بها لأننا لم ننقلها الى هناك ، والغريب أن كثيرا منا يدرسها فى علوم القرآن ثم اذا بدأ يكتب ويفكر فى الدراسة الأدبية تركها ولم يستصحبها معه ، مع أننا على يقين من أن نقل المعلومات من حقل من حقول المعرفة الى حقل آخر له أثر كبير فى هذه المعلومات وهذه المعارف ، وخصوصا اذا كانت مما تتلاءم مع الحقل الجديد ، وقد قدم لنا عبد القاهر نموذجا ناجحا لهذا الضرب من تحريك الأفكار وادخالها فى حقول علمية جديدة ، وذلك حين كان ينقل كثيرا من أفكار سيبويه الى البيئة البلاغية وقد رأينا هذه الأفكار تتسع وتصير خصبة وذات مذاق مختلف وآثار مختلفة .

وحاول أن تستخرج مقولات سيبويه من كتاب « دلائل الاعجاز » وادرس كيف تأسس على اختصارها النحوى بسطا بلاغيا جيدا ، وكيف صارت فروعا ممتدة ومتنوعة . وكان أكثر علم المعانى راجع الى هذه الجذور النحوية التى اهتزت وربت لما نقلت الى تربة جديدة .

وأرى أن كثيرا من مفاهيم علوم القرآن صالح لأن يكون فكرا أدبيا جديدا حين ينقل الى حقل الشعر وسوف أعرض بعض المفاهيم التى تبدو بعيدة عن حقل الشعر وأنها من خصوصيات القرآن مثل موضوع « النسخ » وقد تخيرته لشدة بعده ، ومثل قولهم : القرآن يفسر بعضه بعضا ، وغير ذلك مما نشير اليه اشارات سريعة .

وقبل الخوض فى هذا أشير الى أمر مهم وهو أننا نتفق غالبا فى فهم المسألة ونختلف فيما تبعثه المسألة فى نفوسنا من أفكار ، وصور وخواطر ، وهذا الاختلاف راجع الى أحوال نفوسنا ، فهناك من تجد عندهم ميلا الى المغامرات الذهنية ، وهناك من تجدهم يتحرجون فى هذا ، أو يتحركون بخطوات وئيدة لا تحلق خيالاتهم (فى باب العلم) الا بجناح مقصوص ، والمغامرات الذهنية فى باب العلوم لا تختلف عن الآفاق الخيالية الرحبة فى باب الفنون من حيث هو مجال للوثب الذهنى ، والحركة العقلية الطموحة .

ومن أهم ما يؤدى الى اختلافنا وتنوعنا فى تحريك الأفكار

واستنطاقها والفتق عن مكنوناتها ، موقفنا فى القراءة والتحصيل ، فهناك من يدرس ليحصّل ويجتهد فى أن يستوعب أفكار الآخرين ، ويملأ منها عَيْبته ، ثم يكتفى بأن تكون دراساته ومصنفاته مزيجا من ذلك كله ، فيوهم بسعة الثقافة ومواكبة العصر ، والتوشح بالأصالة وبالمعاصرة معا ، وهكذا ترى فى كتبه كتب الناس ، وفى رأسه عقولهم ، وفى فمه السنتهم ، وهذا هو حال أكثر كتابنا وعلمائنا ، وهم مختلفون بمقدار اصابتهم فى باب التحصيل هذا .

وهناك من يقرأ ليفكر ، ويحصّل ليتدبر ، ويستوعب ليتشرب ، يستوى عنده كل ما تقع عليه عينه غير ناظر الى أنه يوافق أصحاب هذا الفكر أو يخالفهم ، المهم عنده أن يستنهض فى نفسه عقلا يستنزل صوبه من غمامه ، ويستنبط فكرته من معدنه ، ويخفق بجناحه هو ، ويقول بلسانه هو ، ويكتب بمداده هو ، وهكذا كل ذى أنفة ، ولا تجد باحثا مقتدرا الا وفيه بأو" ينأى به عن أن يختلس لسانه ما فى أفواه الآخرين ، وأن يعيش بين الناس وهو يمضغه فى غير حياء ، هذا أصل يجب أن نقدمه بين يدى الفكرة التى نريد تأكيدها وهى ضرورة انتفاع الدراسة الأدبية بما فى علوم القرآن ، لأنها فى جملتها قائمة على اللغة والشعر .

ولو تصورت أننى نقلت موضوع النسخ من حقل الدراسة القرآنية الى حقل الدراسة الأدبية فكيف أراه ؟

لو قلت : اننى فى ضوء هذا أنظر لأتعرف هل نسخ الشاعر بعض معانيه ، يعنى نفى ما أثبت ، أو أثبت ما نفى ، أو رضى ما كره ، أو كره ما رضى ، لكان هذا تفكيرا قريبا ونقلا حرفيا للفكرة مع أنه لا يخلو من فائدة .

وانما لا بد من تحريك الفكرة ، واستنطاقها بغير ما كانت تنطق به هناك ، وحسبها هنا أن ترشدنا الى دراسة الديوان دراسة تاريخية مرتبة ترتيبا زمنيا مضبوطا ، وهذه مسألة لا تكلف شيئا فى الشعر الحديث لأن الشعراء يؤرخون قصائدهم ، أما فى الشعر القديم فانها

مكلفة مشقة ولا تتم الا بفهم واستيعاب ، وهذا أول ما ترشدنا اليه فكرة النسخ حين ننقلها الى الشعر ٠

ثم ندرس شعر الشاعر فى ضوء هـذا الترتيب الزمنى المتقن ، والدراسة فى هذا سوف تتوفر على دراسة وسائل الشاعر ، وأدواتـه اللغوية ، وطريقة تصريفه لها ، فى بناء شعره ، وهذا يشمل صياغته وكلماته ، وصوره ورموزه ، ومنازعه العامة فى بناء قصيدته ، مداخله ومخارجه هل كان يمضى ذلك وغيره مما يدخل فى بنية شعره فى خط متصاعد صارت به أواخر شعره مغايرة لأوائله من حيث الرقى الملحوظ فى هذه الأدوات وهذه الوسائل ؟

أم أن هذه الوسائل اللغوية عنده قد انتهت عند النقطة التى بدأت بها فتشبيهات الشاعر مثلا فى أواخـر قصائـده كتشبيهاته فى أولها ، وكذلك مجازاته وكناياته ، ورموزه وصوره ٠

وهذا البحث لو أتقناه لكان بحثا ممتعا ، لأنه يحكى لنا قصـة الشاعر مع الشعر ، يعنى قصة ابداعه وخواطره وصوره وما داخل شعره فى هذه المرحلة الزمنية التى شغل فيها بالشعر ٠

وكل ذى صنعة ولوع بها ، صابر عليها ، منقطع لها ، لا بد انك تراه وهو فى قمة نضجه ينكر كثيرا مما كان عليه فى بواكير صنعته ، والتبريزى يقول : ان أبا العلاء « كان يغير الكلمة اذا قرأت عليه من شعره فى صباه الملقب بسقط الزند (بكسر السين وفتح الزاى المشددة) وكـان يحث التبريزى على الاشـتغال بغيره من كتبـه كـ « لـزوم ما لا يلزم » (٦) وأنا لا أعرف دراسة واحدة فى أدب العربية تناولت تطور الوسائل اللغوية فى ديوان شاعر ، والمراد بالوسائل اللغوية كـل ما يدخل فى نسيج الشعر لأنه كله أمر متعلق باللغة ، أو قل بعبارة أكثر تحديدا : تطور الخصائص البلاغية فى شعره ورصد هذا وقياسه وضبطه ٠ وأقول : ان هذا الضرب من الدراسة تهدينا اليه فكرة « النسخ » وهى قضية قرآنية لحما وشحما ٠

---

(٦) مقدمة شروح سقط الزند جـ ١ ص (د) ٠

وتأمل قول المفسرين : ان القرآن يفسر بعضه بعضا ، وانزع هذه الكلمة من حقل التفسير ، واغرسها فى دراسة الشعر ، وهى ليست غريبة كغربة فكرة النسخ لأننا نقول : لكل شاعر معجمه ، ونعنى بذلك أن دلالة الألفاظ فى شعر امرىء القيس تختلف عنها فى شعر زهير ، بل ان اللفظة فى ديوان الشاعر تختلف دلالتها من موقع الى موقع ، لأن السياق وجو المعنى مختلف لا محالة ، وهو الذى يحرك الكلمات ويفرغ فيها مذاقه ، وهـذه مسألة ظاهرة ، وتأمل قول البلاغيين فى اختلاف دلالة لفظ « حاجب » فى قول الشاعر :

له حاجِبٌ فى كل أمرٍ يَشِينُه
وليس له عن طالِب العُرْفِ حاجِبُ

وقل أكثر من ذلك فى الصور والمجازات والتشبيهات ، وكل ما هو داخل فى صنعة الشعر ، والصنعة الدقيقة فى هذه الفنون تقتنص من الشاعر بعض سماته ، وتُسْكِنُها فيها ، وتجعلها دالة عليه ، ولكنها لا تكشف هذا المكنون الا بالدراسة التى تقوم على الروية والفكر لأنها رقائق أسدلت دونها حجب ، ولها أقوام قد هدوا اليها ودلوا عليها وهذا كلامهم ، والمهم أن الشاعر يجرى فى هـذه الصنعة شبها واحدا هو شبهه وسمتا واحدا هو سمته ، وأن العين الواعية لا تخطىء هذه الوشيجة كما أن عين صاحب الفراسة لا تخطىء فى تفرسها ٠

وهذا كلام مجمل ، وتفصيله فى خطوته الأولى هو أن أحدد مفردات الشاعر وأضعها فى نظام معجمى ، تظهر فيه الكلمات التى تكررت ، والكلمات التى لم تتكرر ، ثم أنظر فى الكلمات التى تكررت وأحدد المعانى الجانبية التى انفرد بها موقع دون موقع ، وهذا مهم لأن المعانى المضافة هى من انسياق ، وتنوعها وغزارتها انما يكون بحسب قدرة الشاعر على خلق السياق الذى يفعمها بما يثيره من أجواء ، وبهذا تقاس قدرة الشاعر ويقاس أثره فى مفردات اللغة ، تأمل مثلا كلمة « السنا » أو « البرق » فى ديوان امرىء القيس وكيف كان كأنه يخلقها فى كل موضع خلقا جديدا ٠ وكيف كان ينفحها من شاعريته

ما يجعلها تتجدد وهكذا ، وبهذا دون غيره يصح أن تكون كلماته يفسر بعضها بعضا .

والخطوة الثانية هى استقصاء صوره من تشبيهات ومجازات وكنايات .

أبين كيف كانت تشبيهاته للمرأة ؟ وكيف كانت تشبيهاته للأطلال ؟ وكيف كانت تشبيهاته للناقة ؟ وكيف كانت تشبيهاته لأدوات الحرب ؟ وكيف كانت تشبيهاته للطبيعة ؟ والمطر ؟ والنجوم ؟ والقفار ؟ الى آخر ما جرى فيه هذا اللون ، ثم ما هى طريقته فى تكوين هذه التشبيهات ؟ وما أدواته فيها ؟ الى آخر ما يحدد لى مسلكا خاصا بالشاعر فى هذا الباب يصح أن يكون اطارا أفسر فى ضوئه بعض تشبيهاته فى ضوء بعض .

والأمر فى المجازات أيسر . لأنى أحصر كل كلمة استعملها فى غير ما وضعت له حتى أرى مجازه محصورا مضبوطا معدودا عدا .

ثم أبين الكلمات التى تكررت فى المجاز وأقول : ان هذه اللفظة تجرى عنده مجازا فى كذا وكذا ، الى آخره ، وهذا كشف ساطع لحركة اللغة فى ديوان الشاعر وقياس قدرته فى ذلك ، ونحن موقنون أن هذا القياس يحدد لنا مكانة الشاعر فى لغة أمته ، وقدرته على عطائها ، لأن اللغات لا تتسع وحدها ولا من حيث هى ألفاظ وتراكيب تتعاورها ألسنة العامة ، أو المواهب المحدودة ، وانما تتسع وتتعمق وتغرز وسائلها بقدرات الطاقات المتفردة من شعرائها وأدبائها فهم الذين يفرغون فى كلمات اللغة أضواء جديدة ، ويستخرجون من صيغها صورا جديدة ، ويرققون من حواشيها ، ويبعثون الرهافة واللطافة ودقة الحس فى امكاناتها ، ورحم الله أبا الفتح فقد أشار الى هذا والى ما هو أجل منه .

لن أستطيع أن أجعل شعر الشاعر دالا بعضه على بعض الا اذا امتلكت فى يدى مفرداته وصيغه ، وصوره ، وخواطره ، وخيالاته ، ونوازعه ، وكل ما يدخل فى بنية شعره ، واذا كنا نتحدث أكثر عن المفردات والصيغ والصور فلأنها هى سبيلنا الى معرفة كل ما يتحرك فى الديوان من عوالم وهواجس وأرواح ونوازع .

وانتقلك الى موضوع المناسبة بين الآيات أو علم المناسبة ، وقد قالوا : ان أول من أظهر علم المناسبة الشيخ أبو بكر النيسابورى وكان واسع العلم فى الشريعة والأدب .

تأمل سعة العلم فى الشريعة والأدب معا ...

وأذكر مرة ثانية بانه لا بد أن نقوم ببسط الفكرة من بعض جوانبها أو تحويرها أو مجرد الاستضاءة بها ، وليس المطلوب تطبيقها ونحن هنا نحاول أن نفتح الجداول التى تجرى فيها فنون المعرفة وتتحرك فى البنية التركيبية لمجموعة العلوم العربية والاسلامية لأنه قد حبس بعضها عن بعض ، بل قد أهمل بعضها وأميت فى مدارسنا وجامعاتنا . وأقول : ان اعادة التداخل والانتقال وتنشيط حركة الانتقال بين المعارف محتاج الى ذكاء ولقانة فى حوار الأفكار وتحريكها حتى نتبين الجهة التى تبعث ضوءا مناسبا للسياق الجديد ، ثم انه لا يستطيع كاتب فى وقت محدود أن يخرج من الفكرة فكرة صالحة لسياق جديد لأن هذا باب من العلم المتسع لا يفتح الا بمكابدة وطول طرق ، ونحن لم نتعود على ذلك وانما تعودنا على تحصيل ما كابد الآخرون فى استخراجه ، وانما اختلفنا فقط من حيث كنا فريقين : فريق يكابد فى تحصيل مقالة علمائنا ، وفريق يكابد فى تحصيل مقالة العلماء المنتسبين الى الحضارات القاهرة لنا ، وبهذا فقد الفريقان أجل ما فى العلم وأنبله ، وهو المكابدة الجليلة النبيلة فى استخراج دفائنه .

أقول هذا ثم أذكر ما يقع فى نفسى من حديث المناسبة لو أننا انتفعنا به فى الدراسة الأدبية ، وأول ما يتبادر الى النفس منه هو البحث الذى يكشف المناسبة بين العناصر المكونة للقصيدة من صور ورموز وصيغ وخواطر وأحوال ، وقد ذكروا أن عمود البحث فى المناسبة « أو الأمر الكلى المفيد لعرفان مناسبات الآيات فى جميع القرآن هو أنك تنظر الغرض الذى سيقت له السورة ، وتنظر ما يحتاج اليه ذلك الغرض من المقدمات ، وتنظر الى مراتب تلك المقدمات فى القرب والبعد من المطلوب ، وتنظر عند انجرار الكلام فى المقدمات الى

ما يستتبعه من استشراف نفس السامع الى الأحكام واللوازم التابعة التى تقتضى البلاغة شفاء الغليل ، بدفع عناء الاستشراف الى الوقوف عليها ، فهذا هو الأمر الكلى المهيمن على حكم الربط بين جميع أجزاء القرآن ، فاذا عقلته تبين لك وجه النظم مفصلا بين كل آية وآية فى كل سورة » .

والنظر هنا ينغل فى جهات أربع :

الأولى : نظر فى الغرض واستكشافه وتحديده ، وليس هذا بالأمر الهين لأنه لا يظهر الا بفحص الكلام كلمة كلمة ، وتركيبا تركيبا ، وصورة صورة . وأن يكون نظره فى ذلك نظر اليقظ الدراك الذى تهديه موهبته الى اصابة المغزى وادراك المقصود .

والجهة الثانية : النظر فى المقدمات . يعنى معرفة منازل المعانى ومراتبها فى ضوء المعرفة الواضحة للغرض الذى انعقد عليه الكلام . وبهذا نوضح المعنى الذى هو بمثابة الأصل ، والمعنى الذى هو مهاد ووطاء ، وهذا باب من النظر يحتاج الى مزاجعة وأناة ، وأذكر لك قياسه فى المعانى الجزئية ، تقول : أقبل زيد ضاحكا . اذا كان رأس المعنى هو الاخبار باقباله ، وكان الضحك تابعا لهذا الأصل ، فاذا كان رأس المعنى هو الاخبار بضحكه قلت : ضحك زيد مقبلا ، وهكذا ترى فى الجملتين خبرين لا خبرا واحدا ولكن أحدهما رأس المعنى والثانى فرع له وتابع .

وتأمل كلام عبد القاهر فى قول البحترى :

ولم أمدح لأرضيه بشعرى لئيما أن يكون أصاب مالا

ولماذا أعمل الفعل الأول « أمدح » فى الاسم الظاهر ، وأعمل الفعل الثانى « أرضى » فى ضميره ، وعبد القاهر يقول : لأن الفعل الأول هو الذى انعقد عليه المعنى اذ المقصود نفى أن يمدح اللئيم وقوله « لأرضيه » جاء تابعا للفعل الأول وملحقا به ، وهكذا يقدم لنا البلاغيون نموذجا دقيقا للبحث فى المعانى التى قصد قصدها والمعانى التى جاءت تابعة للمعنى الأول أو مقدمة له ، وعلى هذا يقاس النظر الى المقاصد الكلية ومقدماتها .

والجهة الثالثة : أن تنظر الى مراتب تلك المقدمات فى القـــرب والبعد من المقصود ، يعنى العلاقة بين المقدمة والمطلوب . ولا بد ان تكون المقدمات موشاة بتوشية تشير الى المطلوب ، وهذا فى الشـعر يفيد أن الحديث عن الطلل والرحلة والصاحبة فى قصيدة المديح غير الحديث عن الطلل والرحلة فى قصيدة الهجاء ، ثم ان مدائح الملوك غير مدائح قواد الجيوش ، ومدائح الكتاب والعلماء غير مدائح غيرهم ، وهكذا .. وهذا يعنى أن الغرض فى تحديده الدقيق لا يكفى أن يقال فيه هو مديح أو هجاء ، وانما يتحدد المديح بصورة أدق ، لأن لكل بـــاب من أبواب المديح مداخله التى هى أشبه به ، ولهذا تجد ذكـــر الصاحبة والرحلة والناقة فى قصائد الأعشى التى يمدح بها قيس بن معد يكرب غير الصاحبة والرحلة والناقة فى قصائده التى يمدح بها هوذة بن على ، وهكذا .

والجهة الرابعـة : هى النظر فى حركـة الكـلام وكيف تثير فى مسيرتها هواجس وأحوالا ، وأشجانا ، ترى الكلام يقف عندها ويتغلغل حتى يشبع أحوال الاستشراف هذه ، وذلك وفاء لحق البلاغة كما قالوا ، وهو جيد لأنه استكشاف حالة المجاذبة بين اللغة والنفس ، وهى انما تكون فى البنية الداخلية للغة حيث نـرى البيان هناك يناغى النفس مناغاة الأم وليدها حين تستثير أشواق الطفل نحـو شىء ثم تشبعها ، ثم تستثيرها ثم تشبعها ، وهكذا يتولد الحب وتكون الألفة بين الســامع واللغة التى أثارت أشواقا وأشبعت رغائب ، كل هذا وهى فى طريقها نحو المقصود ثم هو مشروط بألا يخرج الكلام عن المقصود .

هـذا نص من نصوص كثيرة جـــاءت فى علم المنـاسبة ، وفيه ما ترى .

وقد قلنا : اننا لا نطبق كل ما يقال فى علوم القرآن تطبيقا حرفيا فى دراسة الشعر ، وانما نستلهم ونستضىء ونستخرج .

وهذا النص الذى شرحته فيه اشارة جيدة هى دراسة العلاقة بين مداخل المقاصد ، والمقاصد نفسها ، يعنى مقدمات القصائد وموضوعات

القصائد ، وهذا باب من غوامض الشعر ، وقد تجد عنصرا لغويا غريبا فى بناء القصيدة ، ويظل هذا العنصر ناتئا عندك لا تستسيغه ولا تستوعبه فيما استسغت واستوعبت من عناصر القصيدة حتى تقع على مناسبته الخفية لعناصر أخرى دخلت فى بناء القصيدة .

اقرأ قول الأعشى :

ودِّعْ هُرَيْرَةَ إنَّ الرَّكْبَ مُرْتَحِلُ	وهل تُطِيق وَدَاعًا أيُّها الرَّجُلُ
غرَّاءُ فَرْعَاءُ مصقولٌ عَوارضُها	تَمْشِي الهُوَيْنا كما يَمْشِي الوَجِي الوَحِلُ
كأنَّ مِشْيَتَها من بَيْتِ جَارَتِها	مَرُّ السَّحَابَةِ لا رَيْثٌ ولا عَجَلُ !

وتأمل صورة مشى الوجى الوحل ، بين هذه الصور تجدها صورة غريبة نافرة لا تلتئم مع ما حولها .

وتعجب كيف يرمى الأعشى بهذه الصورة الغريبة النافرة ، وهو يصف محاسن هريرة ويتأنق فيها ويبالغ . انظر الى أول البيت « غراء فرعاء مصقول عوارضها » وكيف تواترت الكلمات تصف النعمة ، والصون ، والنقاء ، والصفاء ، ثم كيف يرمى بها الكلام فجاة فى الوحل ، وهى موجوعة الأقدام ، والوجى معناه رقة القدم أو الحافر من الحفى ، وذلك يكون من طول السير على أرض غليظة خشنة ظالمة .. تأمل ...

وأصحابنا من حذاق البلاغة الحديثة والصورة الجديدة يذكرون أن مثل هذا من التشبيهات الحسية الجامدة التى تجاوزتها الصورة الحديثة ، وأنها تخلو من المناسبة النفسية ، وأن طرفيها يثيران فى الحس شعورا متباينا ، الى آخر هذه « التعويذة » الجديدة التى ينزلون برقاها آبدات المعانى من سماوات الالهام .

والأعشى له من البصر بالشعر ما يعصمه من مثل هذا الاختلال ، وخاصة فى مطلع قصيدة هى من أجود شعره ، وفيها من دقائق الصنعة ما يعدل معلقته « ما بكاء الكبير بالأطلال » حتى انها تذكر دونها .

ولهذا لا نرمى الرجل بما يرميه به هذا الفقه الجديد في بلاغة الكلام •

ونقول هذا ونعلم علما أن هذه البلاغة الحديثة مستبدة طاغية مثل كبرائنا ، وأن الذى يتشبث بما هو مقتنع به من هلم العلماء ، ولم يطأطىء رأسه اجلالا لها لا بد أن يضرب منها أو من صبيانها بسياط التخلف والجمود والجهل الى آخره ، حتى لتكاد تدفنه حيا ملفوفا فى كتبه وملازمه الصفراء كما يفعل كبراؤنا مع رجالنا الذين يقولون لهم « لا » أو يتأخرون قليلا فى القول « نعم » ، وهنا أيضا مناسبة لطيفة لأن الثقافة الغالبة فى عهد الطواغيت لا بد أن تكون فيها نفثة من نفثات الطاغوت • ودع هذا وعد الى أبى بصير ، ولأزيدك احساسا بغرابته وغموضه تامل البيت الذى يليه :

كأنَّ مِشْيَتَها مَن بيْتِ جَارتِها مَرُّ السَّحابَةِ ، لا رَيْثٌ ولاَ عَجَلُ

المراد أيضا وصف لين مشيتها وبطئها ، ثم انظر كيف ارتقى بها الى السماء وجعلها سحابة تمر مرا لا ريث فيه ولا عجل ، وأى شىء أشبه بالمرأة من السحابة التى فيها الوفر ، والسخاوة ، والري والانبات ، والخصب ، مع أن أول البيت أنها خرجت من بيت جارتها ، وهذا بخلاف أول البيت الذى قبله « غراء فرعاء مصقول عوارضها » وكل هذا يلح على أن « الوجى الوحل » فيه رمز الى شىء مهم ، لأنه ترك هريرة ونافرها منافرة ظاهرة والكلام قبله متآلف معها تآلفا ظاهرا والكلام بعده كذلك •

وهذا العنصر اللغوى الشارد متناسب تناسبا ظاهرا مع صورة ذكرت بعد ثلاثة وأربعين بيتا كانت مزيجا غنائيا رائعا ، ترى فيه الصبوة المتوهجة تطل منها أحيانا الصورة العارية ذات الشهوة ، والتى تصف ذروة الاقتدار والتمكن ، وكأنها رمز الى قمة التحدى والمواجهة وفرس عنق الخصم ، ولهذا نرى صور العراء المفحش فى قصائد الهجاء وكأنها مظهر التوقح والطعن والقهر والسحق ، ومقدمة رامزة الى فحش القول •

كما ترى فى هذه الأبيات نشوة عارمة بجمال الأشياء ، واستخفافا ساخرا بعواطف الناس والعلاقات الانسانية وأنها زيف . كلهـا خـادع ومخدوع ، اقرأ وتأمل :

عَلَّقتها عَرَضًا ، وعَلَقَتْ رَجُلاً ... غَيْرِى وعَلّق أخرى غيرَهَا الرَّجُلُ
وعَلَّقَتْه فتاةٌ ما يُحاوِلُهَا ... من أهْلِ مَيْتٍ يَهْذِى بها وَهِلُ
وعَلَّقَتْنِى أخَيْرَىَ ما تلائِمُنى ... فاجتمع الحُبُّ حُبًّا كلُّه تَبلُ
فكلنا مُغْرَمٌ يَهْذِى بصَاحِبِه ... ناءٍ ، وَدَانٍ ، ومَحْبُولٌ ، ومُحْتَبِلُ

تأمل جملة العواطف والعلاقات فى هذه الأبيات تجدها خدعـة مباحة ، وكأن الكل متعلق بقفا صاحبه ، فالذى علق فتاة لا تنظر اليه ، والتى علقت فتى لا ينظر اليها ، والكل ناظر الى الذى لا ينظر اليه ، وهذه صورة غريبة وفذة وسخية ، بل ومفعمة بالتعجب والتعجيب من شأن هذه النفوس .

ولم أقرأ لشاعر (والشعر كله حب وصـبوة) فلسفة تسخر من علاقات الناس كهذه الفلسفة وهذا جيد بالغ فى مدخل هذه القصيدة التى نخطو نحو غرضها ، وقد ربط الأعشى هذه الصورة بغرضه الذى عقد عليه شعره ، وذلك فى كلمتين حيث ذكر « المحبول » أى الذى وقـع فى الحبالة ـ بكسر الحاء ، « والمحتبل » أى الذى أوقع غيره فى الحبالة ، وهكذا نرى الكل صائدا ومصيدا ، ونرى الذى يرمى حبالة ليوقع غيره فيها قد وقع هو فيها ، وهذا ما صرح به ليزيد بنى شبيان الذى نقل الكلام اليه نقلا مباشرا على طريقة القطع وليس على طريقة حسن التخلص حين قال فى البيت الخامس والأربعين من نسخة الديوان :

أبْلِغْ يَزِيدَ بَنِى شَيْبَانَ مَأْلُكَةً ... أبَا ثُبَيْتٍ أما تَنْفَكُّ نَاتَكِلُ
ألَسْتَ مُنْتَهِياً عن نَحْتِ أثْلَتِنَا ... ولَسْتَ ضائرَهَا ما أطَّت الإبِلُ
تُغْرِى بنا رَهْطَ مَسْعُودٍ وإخْوَتِه ... عِنْدَ اللقاء فتُرْدِى ثم تَعْتَزِلُ

ثم يقول :

لا تَقْعُدَنَّ وقد أكَّلْتها حَطَبًا تَعوذُ من شَرِّهَا يَوْمًا وتَبْتَهِلُ

ويزيد بنى شيبان سيد من سادات بكر ، وكان قد أغرى رهط مسعود واخوته برجل من بنى سعد بن مالك ليأخذوه فى دم لم يصبه فيهم وانما أصابه رجل من بنى كعب بن سعد وكلهم من بيوت قيس قوم الأعشى . وذلك لأن الرجل الذى أصاب الدم لم يكن محاذيا للمقتول فى التقدم والسيادة ، فغضب الأعشى من ذلك وهجا يزيد بنى شيبان وهدده وذكر أنه يضع فى الفتنة ، حتى اذا أهاج الشر اعتزله . ويبلغ الدقة فى وصف مسعاة يزيد بالوقيعة بين الأقوام ، وهذا ما نراه أصلا لقوله هناك « كما يمشى الوجى الوحل » لأن دبيب يزيد فى هذا الشان دبيب على أرض غليظة وعرة ثم انه يورثه الحفا والوجع ثم انه خوض فى الطين والوحل ، ثم تأمل الأبيات والأبيات قبلها ، وذكر العلاقات الانسانية والسخرية منها والمحبول والمحتبل ، يشف لك التأمل عن مناسبة واضحة واتساق بين العناصر وتلاقى النغم الخفى بين الصور وهذا من لطائف صنعة الشعر .

والمآلكة : الرسالة . والائتكال : افتعال من أكل وفيه مزيد معاناة ومبالغة فى بيان السعى والوقيعة وأكل لحوم الأقوام . ونحت الأثلة : مجاز عن تنقصهم ورميهم والنيل منهم ، والأثلة : واحدة الأثل وهو شجر عظيم قوى ، والنحت : الحت وهو مستعار للتنقص والاساءة والطعن ، وهذا يعنى أن يزيد كان قائما فى هذا الباب يروح ويجىء ويسعى ويشق على نفسه وقد قال الأعشى :

لا تَقْعُدَنَّ وَقَدْ أَكَّلْتَهَا حَطَبًا تَعُوذُ من شَرِّهَا يَوْمًا وتَبْتَهِلُ

وقوله « تقعدن » يعنى أنه قائم فى هذا الأمر جاد لا ينى ، وتأمل المناسبة بين « أكلتها » و « تأتكل » فى البيت قبله ، وتأمل المناسبة بين «تعوذ من شرها يوما وتبتهل» وصلته بقوله «محبول ومحتبل» لأن عوذه من شرها يعنى أنه يسقط فيها وهذا هو المحبول ـ أى الذى يسقط فى

حبالة ـ والحبالة هنا من صنع يديه ، وقد هجا يزيد بنى شيبان بقصيدة ثانية لم يذكر فيها سعيه بالبغضاء وانما كانت المجاهرة بالحرب وقد بدأها بذكر «هريرة» وقال « هريرة وَدَعْها وان لام لائمُ» وكان الأعشى كان يصطنع خصائص أسلوبية خاصة فى سياقات خاصة ، وهذا أيضا من باب المناسبة .

وبحث مناسبات الصور اللغوية داخل القصيدة بحث جيد ، واقترابك منه يعنى اقترابك الحقيقى من الشعر ، واغفالك له يعنى اغفالك لحقيقة من حقائق الشعر لا تغنيك غناءها كل منجزات (كلود ـ ليفى شتراوس ، وفلاديمير بروب ، ورومان ياكوبش ، وغيرهم) . ممن قامت على « نفحاتهم » دراسات فى الشعر الجاهلى ، هى من الهزل الذى صار مذكورا فى حياتنا الأدبية ، وبقاء هؤلاء فى ميادين الفكر والأدب مرتبط ببقاء مبررات أمثال هذه النوعية من كتابنا السياسيين ، الذين يصفون كبراءنا بالذكاء الخارق والالهام العبقرى ، ويصيرون هزائمهم نصرا ، ولصوصيتهم كفاحا ، وطغيانهم عدلا ، وتخريبهم البلاد عمرانا ، وتخريبهم الانسان بناء جديدا له ، كما يقول هؤلاء : ان تخريب علم القدماء بناء لعلم جديد ، اللغة واحدة ، و « الحكاية » واحدة ، هناك مجلات أدبية ودور نشر متخصصة فى ترويج الفكر الفاسد ، كما أن هناك صحفا سياسية متخصصة فى « ترويج » الزعامات الفاسدة ، واحذر أن تفصل بين الأمرين ، وانظر نظر المتثبت الى من فى أيديهم توجيه الحركة السياسية ، ومن فى ايديهم توجيه الحركة الفكرية ، وأنت واجد لا محالة شبها لا تخطئه عين ترى وأذن تسمع ، وعقل يحلل ويستنبط ، واعلم علما لا يخالجه ريب أن الأبراج العالية لو شابها شوب من الصدق ـ وان قل ـ لانعكس ذلك لا محالة على الآفاق الأخرى ولكسح كثيرا من هذا الهزل الذى صار سيد الساحة ، ولكنها عن هذا الشوب من الصدق بعيدة بعيدة .. ودع ذا واقرأ قصيدة علقمة بن عبدة الفحل :

طحا بِكَ قلبٌ فى الحِسانِ طَروبُ
بُعَيْدَ الشباب عَصْرَ حانَ مَشيبُ